ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ؛ لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأننى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول : اتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضرب به على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعنى : إن كانت مرئية فى زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفّوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدى موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا فى القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدى للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم : كفّوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم : ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبى الله ، كنا فى عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه النسائى والحاكم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه . . مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعنى أنهم خافوا الناس أو رجعوا فى الإيمان ؟ . كما طلب بعض من بنى إسرائيل القتال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقى ، قد يدب فى نفوسهم الخَوَر والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتى على المؤمن ، فمادام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ؛ لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتى منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس فى رأسه ، ويقف أحياناً موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ ومادامو غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا .

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعنى أنهم ليسوا سواء ، ففريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته فى إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان فى نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أتحب أن يطّلع الناس على غيبك ؟! لا ، إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك في نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعه الله على ما في قلبك ، أو أطلعك على ما في قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه .

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويحب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويحب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين في أسمائهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك : يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذى عمله في الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابي آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء في القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال » وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كى نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشىء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه فى ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعى تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهى حياته بالقتل .

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحُباً فى الدنيا ومتاعها ؟ ويأتى جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذى يُقتل فى سبيل الله فسيجازيه على عمله فورا ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت . لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل فى الحرب جهاداً فى سبيل الله . قال بعضهم : اذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل فى سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا ، إذن فهذا تربيب وتنمية للفائدة ، ولذلك قال الحكيم :

ولو أن الحياة تبقى لحى لعددنا أضلَّنا الشجعان

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربى يقول :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى

والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالي السياق في الآية نجد أن الحق سبحانه يربي - في صدر الإسلام - الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفي نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة ، فكلما أهيج واحد منهم في شيء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، وأراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمي النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذي يريد أن يجعل الأضعف تبيعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار في الإنسان فكان القتال حفاظا على كرامة الإنسان أن يكون تبيعاً في العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية في أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغي .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التي تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرا طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنساني يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ؛ لذلك تجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون : هدم بنية ، ولكن الموت حتف الأنف هو الذي يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها . وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخى فى الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ؛ لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هى العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفا شرسا فى تثبيت قاعدة الاختيار الإيمانى فى البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن قالوا لك ذلك « قل متاع الدنيا قليل » ، فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعنى أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه فى الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد فى عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول فى الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلاً ، فما دخل الفرد فى ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هى زمن محدد ، والله يبشر المؤمن الذى يقتل فى سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمناً غير محدود . وأيضاً فالبقاء فى الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهى غير محدودة وهى متيقنة .

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم . وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق ينمى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستذله ، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له .

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ فى حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا فى حقه . فإذا قال الدين لواحد : لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، ففى هذا القول ما يوصى كل غير فى الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم - إذن - يعود على الفرد .

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل فى قوله : « ولا تظلمون فتيلاً » ونعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الأقذار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج ناتجا كالفتلة ، أو الفتيل هو الفتلة فى بطن النواة ، أى لا نظلم حتى فى الشىء التافه . والعدالة هنا بمشروطها ؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر .

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتحسب الحسنة عند الله فى ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل . ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ؛ لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب . وندعو الله : وبالجبر لا بالحساب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » بلاغ من الحق لنا : أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعني فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل . وسبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالفضل هو الذى يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتى الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ؛ فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت . ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف .

إن الذين درسوا « الظرف » فى النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان . والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه ، ولكنه أشاع زمنه فى كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال فى مكان الموت .

وها هوذا الحق يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرفٍ ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية ـ كما نعلم ـ تعطى ظرف المكان . فلطافة تغلغل الموت تخترق أى مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان فى عافيته وفى حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها فى العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلما لطف عدو الإنسان ودق ؛ كان عنيفا ، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا . فالذى له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ . يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان .

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبنى بيتاً فى خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فيقول لصاحب البيت : إنك لم تحتط لمثل هذا المكان ، فهو يمتلىء بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التى فى الدور الأول ، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويجيء واحد ثان ويقول له : لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويجيء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول : إننى أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة ؟. إنه ذباب سام . وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ . ويجيء واحد رابع ليقول لصاحب البيت ؛ فى هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من الذباب وأكثر عنفاً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذى تضعه على نوافذك ، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقاً بحيث لا تمر منه هذه الحشرات . إذن فعدوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفاً .

ولذلك فأخطر الميكروبات التى تتسلل إلى الإنسان ، ولا يدرى الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدرى ولا يعرف لذلك زماناً أو مكاناً .

ويلفتنا سبحانه إلى أن الشيء عندنا كلما لطف ازداد عنفاً ، ولا تمنعه المداخل . فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما مقابل الموت ؟. إنه الحياة حيث توجد الروح فى الجسد . وما كنه الروح ؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها فى نفسه ، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهى . والحق هو الذى جعل للحىّ روحاً ، وعندما ينفخها فيه تأتى الحياة .

إن الحق ـ سبحانه ـ يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك فى بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف ـ مثلاً ـ الفيروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملك :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَـدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرّ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع . ووصف الحق أمر الموت والحياة فى سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة ؛ مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

ينبهنا ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : « الذى خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وَجِلين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا :

نعم رَبَّنا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فيطلعون فرحين مستبشرين ، أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط ، ثم يقال للفريقين « كلاهما »[1]: « خلود فيما تجدون لا موت فيه أبدا »[2] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة . ويعلمنا الله أنه يقضى على الموت ، فنحيا فى خلود بلا موت . وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا فى سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندكم لا تمنع الموت . ولو كان من دنا أجله وحان حَيْنه يسكن فى بروج مشيدة لأدركه الموت .

إن الأداء القرآنى يتنوع ؛ فهناك من الأداء ما نفهمه من الألفاظ ، وهناك ما نفهمه من الهَدْى الأسلوبى للقرآن ؛ لأنه خطاب الرب . فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكن عندما يخاطب الحقُّ الخلقَ فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس . ولذلك نجد طفلاً صغيراً يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور ، فيسأله واحد من الكبار : ما الذى يسرك فى حفظ القرآن ؟ . فيجيب الصغير : إننى أحس بالانسجام وكفى . هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه ، فالمتحدث هو الله ، وسبحانه بقدرته وجمال كماله يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبحانه وتعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت » أى أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

---

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمعروف فى القاعدة « كليهما » ؛ لأن الكلمة توكيد لمجرور ، ولعله على لغة من يلزم المثنى الألف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٢٤ ص ٢٠٤ .

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يدرككم » تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق : « ولو كنتم فى بروج مشيدة » . وعندما نبحث فى الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها . والحروف الأصلية فى هذه الكلمة هى « الباء » و« الراء » و« الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور .

فيقال : « هذه امرأة فيها بَرَج » أى أن عيونها واسعة وتحتل قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحة ، فالبَرَجُ هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع نبنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد . والقصد من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشىء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشىء المشيد فهو من « الشِّيد » وهو « الجص » ، ومن « الشَّيْد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالجص فهى مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جمعاً وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا آحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القياس . فلو بنى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً لجاءه الموت .

والجمع مقصود أيضا : أى لو كنتم جميعا معتصمين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة . وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج . وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق فى إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ؛ لأن الدين هو نور طارىء على ظلمة ، والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد فى الآخرين . وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجيء النور ؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ؛ ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى حاجتين : الحاجة الأولى : أنّ مَن يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء .

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه . إذن فكلمة « الموت » تعطى الرَّغَب والرَّهَب . فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية . وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب فى عزيز ؛ فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإمّا غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عجّل به ليرى خيره ، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك . وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رَغَب ، أما الكافر فهو خائف ؛ وهذا رَهَب .

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميْت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام أليق بمن ؟

الذى يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وهذه الكلمة لها فى ذهنه تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فينسب الخير والحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفى قلوبهم الكفر ، وإمّا أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذى فيه خير على أساس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التى تحدث لهم . كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا يتيح لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتلى إلى أبد الآبدين :

﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والحق يقول :

﴿ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خاسر .

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا : « إن الله أسعدنا بالغنائم » . وإن هُزِموا قالوا : إن محمدا هو الذى أوقع بنا الهزيمة ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فإياك أن تُخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب . وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس يعبد النار ـ معاذ الله ـ أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذى يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد ممن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله . وقد ينصرف المعنى إلى اليهود . فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ؛ فقالوا : مزارعنا وثمارنا فى نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد له تعليلاً مادياً ؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ؛ لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بالربا ويثيرون العصبية ، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجارة بكلمات الله . فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات : علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التى صنعوها بالتفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ؛ لأن الإسلام حرم الربا ، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتابا ـ وهو القرآن ـ غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا فى الحزن وانشغلوا بهذا الهم . وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يناجيه إلا فى أمر محمد . ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الزراعة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هى ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإمّا أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب . وإمّا أن يكون ذلك من آفة سماوية فلماذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعزون به . لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب . فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمار .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله مما أورده الحق على ألسنتهم : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هى الظفر والغنيمة والسراء والرخاء والخصب . والسيئة هى الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجدب. هذا ما فهموه، ونحن ـ المؤمنين ـ نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة فى الشرع هى ما يأمر به الله ، والسيئة هى ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب فى عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة » . ويزيد على ذلك : « يكفينى عزاءً الأجرُ عليه ، فأنا لم أكن سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هى

ما تستطيبه نفسك ، أو أن السيئة هى ما تشمئز منها نفسك ، لا ، فالمصاب فى عُرْف الشرع هو من حُرِم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله » أى أن الحسنة والسيئة من عند الله .

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ؛ فالسيئة فى نظر الإنسان والحسنة فى نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن ، وافتقاد المقاييس الصحيحة هو الذى يتعب . وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب بالكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل فى المذاكرة وفى حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها فى عرف الحق عموماً حسنة . فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولَمَا ذاكر أحد ولا نطمس العلم . وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسب ، فهذا إحياء للحسنة فى آلاف غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحا ووافيا وتطبيقيا ، وخاضعًا لسنة الكون . وكذلك الذى لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الرى ، فهو يأتى يوم الحصاد ولا يُؤْتى ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية فى ذاتها فهى حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أى سبب من الأسباب ؛ فالمصاب بنتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مساءة وإضرارا به ، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سنناً فى كونه فالذى يأخذ بالأسباب يعطيه ، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجدّ ، والمتكاسل هو الراسب ، والنتيجة كلها من عند الله تقنيناً كونياً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقراً بما فيه يتركه من غير تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليبطلها ويدحضها .

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن نلف قضايا الخصوم لفاً بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضاً ثم يكر عليها بالنقد ليربى - كما قلنا - المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضية كفرية عقيدةً إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيقولون كذا فقولوا لهم كذا . .

مثال ذلك : عندما قالوا : إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذى يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليبطلها ويقول : « ها هى ذى نقاط الضعف فى هذه القضية » . .

وحينما قالوا : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه ؛ قل لهم يا محمدُ :« كل من عند الله »، وتتجلى دقة الحق سبحانه فى أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً فى البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد فى هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم فى أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و« كل » تعنى : كُلًّا من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء فى أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباده الأفعال ؟ . فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ . ودخل العلماء فى متاهة كبيرة .

وهنا نقول : يجب أن تفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سُنناً ، ومن

عجيب الأمر أن السُّنن تنتظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر مما يدل على أنه لا أحد فى كون الله أولى بربوبية الله من الآخر ، فحتى الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق فى ربوبيته فأمر الأسباب التى خلقها استجيبى لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتى إلى أنه مؤمن أو كافر لأننى أنا الذى خلقته وأوجدته فى الكون ، ومادمت أنا الذى أوجدته فى الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجى ، وأقول لعبادى : أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بى فسيكون له وضعٌ آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن فالله بالألوهيّة مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتيات للخلق جميعا ، لكل العباد ؛ فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطى بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به .

فالسنن والنواميس كجنودٍ لله نجدها متأبية على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للخلق المسخر : هم خلقى وأنا الذى استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدى مهمتها للمؤمن وللكافر جميعا ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بوساطة الرسل . يوضح : أنا أحب كذا وأكره كذا فالذى يحبنى يعمل بتكليفى . إذن فمناط الربوبية غير مناط الألوهية .

مناط الربوبية خلق من عَدم وإمداد من عُدم . ومناط الألوهية طاعة ، والطاعة تقتضى أمراً ونهياً . فكل ما كان من مدلول الأمر والنهى ـ الذى هو التكليف ـ فهذه مطلوبات الألوهية .

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية . والسنن الكونية لا تتخلف أبداً . فمثلا الذى يريد أن ينجح فى مادة من المواد فى مدرسة ما . . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح فى مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذى أنجح نفسه أو أن القانون هو الذى أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذى أعطاه النجاح . وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنّه قد بذل جهداً فى التحصيل الدراسى ، وحقق له هذا الجهد النجاح فى نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا يتسبب فى رسوب أحد ، ولكن الطالب الذى يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذى لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شىء فى الوجود له قانونه .

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا - غالباً - يعرف العضلات التى تتحرك لتحمل هذا الشىء . فالذى فعل حقيقة هو الله . واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ؛ أم شرّاً ، فالفاعل الحقيقى لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً .

صحيح أن الإنسان ليس له دخل فى العمل ذاته ولكن له دخل فى توجيه الطاقة الصانعة للعمل ؛ فالثواب أو العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة . والسكين - كمثال آخر - يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعن بها إنساناً ، وهى لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ؛ ولا تعصاه إن طعن إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً للسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الآلة التى خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبح ، سواء أكان الذبح فيما حرم الله ، أم فيما أحل . إذن فالله هو الفاعل لكل شىء . ومادام الفعل فى نطاق أوامر المكلّف صاحب السنن فهو الذى يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ؛ فالشاب الذى يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر فى الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر فى الأمر الردىء ، وعيناه صالحتان لأن ينظر بهما فى مجلة هزلية أو ينظر بهما فى كتاب .

إذن فهو ساعة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء رَبِّه ؟ . لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التى خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك .

إذن فثوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيىء . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذى أهمل فى زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جدب فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله فى مجالها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل فى ذلك للإنسان . فالنواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة فى إطار هذه فهى من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذى يلعب الميسر ويأتى له الخراب والدمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بألا يمارس تلك الألعاب . وأى أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق الرزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان .

والذى يتعبنا ويرهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئوليته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعباً . فمادامت لدينا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعدها ونستغل المياه الجوفية فى زراعتها . فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون فى المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله فى الكون . فليس من الضرورى أن ينزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

وجعل الله للمياه مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان . وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وكلنا يعرف قانون التبخر ، فعندما نأتى بكوب من المياه وننشره على مسطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فالمياه تتبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية المياه نفسها فى كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدراً ضئيلاً للغاية . إذن فكلما زاد المسطح ، كان البخر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ؛ لأن الماء أصل كل شىء حى . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه فى مساحة متسعة حتى تتبخر وتنزل مطراً ، فما يجرى فى الوديان يجرى ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فإياكم أن تقولوا : إن السكان سيزيدون عن القوت الذى فى الأرض ، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصدَّق من بعد قول الله . وهب أن موظفاً ـ ولله المثل الأعلى ـ جاء فى أول الشهر بتموين الشهر كله ووضعه فى مخزن البيت ، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدَّت الغداء ، فماذا يحدث ؟ إنه يغضب . ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

فى الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافى على استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التى خلقها الله له ، ولم ينفذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ؛ فتكون معيشته ضنكاً . فسبحانه يقول :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر فى المعنى العام هو : ألا تشكر النعمة لله . وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان . إذن فالقرية هى مكان السكن ، وليس مكان السكن فقط هو الذى فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكأن كل مكين فى بقعة ؛ له بقع خالية فى مكين آخر تخدمه . وتلك القرية كفرت بأنعم الله .

والكفر فى معناه الواضح هو الستر ، والقرية التى كفرت بأنعم الله هى التى سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين فى تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتى من هذين الأمرين :

أى أن هناك أمماً متخلفة ، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . أو أن هناك أممًا أخرى تملك الثراء والخير وترميه فى البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة . والخراب الذى نلمسه فى علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التى ضرب الله بها المثل :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

ولنر دقة الأداء القرآنى ، فى قوله : « فأذاقها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم . والطعم يكون باللسان وحده : أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية فى مجالاتها التى حددها الله ، وعندما تنتظم هذه السنن فى حركتها فهى تعطى النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون : إن الأمراض الوراثية التى تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجترائهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك ، وكذلك الأمة والجماعة .

لكن المسائل التى يقف فيها العقل فقط هى المصائب التى تصيب الناس بغير عملهم . وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ؛ فالشيء الذى له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها ، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان فى نفسه . أما الأشياء التى تأتى قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعل ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوِّن فى الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائما على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شيء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان : ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهى أحداث تقول للإنسان :

لو أن المسائل فى الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائما لنَسْلَم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة فى ألمانيا ـ مثلا ـ وقالت : إن وجود الشر فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل ، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى فى العصر نفسه : لا . إن رتابة النظام فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام فى الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ فى الكون كدليل على الكفر . وكُلّ من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر .

ونقول لهم : كلاكما غبى ؛ الذى يريد منكم النظام سببا لوجود إله حكيم ، والذى يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان الأمران موجودان فى الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين .

انظر إلى النظام فى الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذى يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملاً .

لكن عندما يأتى الشذوذ فى نظام الكون وحركة الأفلاك فالذى يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له : انظر إلى الفلك الأعلى . ومن يريد الشذوذ دليلا على أن هناك قوة تتحكم فى ميكانيكية العالم نقول له : هذا موجود ، ولكن الشذوذ موجود فى الأفراد . فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد .

ونعرف ـ أيضا ـ أن رتابة النعمة قد تلهى الإنسان عن المنعم . فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه ، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرساً ، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه ، أو إذا آلمته كُلْيَته فهو يجرى إلى الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمه الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول : الحمد لله ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا،وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج ، وهذه هى وسائل إيضاح فى الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التى تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها ؛ لأنها صنعت شيئاً يخالف التوجيه . فإن كان هناك شىء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول : هذه هى حكمة المكوِّن حتى يلفتنا إلى أنه المنعم . ولهذا نرى الشواذ فى الخلقة قلة لا كثرة ، ويعوض الله من أصيب بشذوذ فى شىء بدوام مَلَكَةٍ فى شىء آخر . ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاب ضياء العين للعقل رافداً لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

وضربت المثل مرة ببتهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسمفونياته . . إنّه كان أصم .

ولذلك نحن نسمع فى لغة العامة : كل ذى عاهة جبار . فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلتفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضا . إذن فالمصائب التى تحدث وليس للإنسان دخل فيها هى الملحظ الذى يجب أن نبحثه . وهذه هى مكونات الحكمة كى يلتفت الإنسان دائما إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة .

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود . ولا تزال يده فى الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتمس لها حكمة . والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطلى » .

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجِّيَ إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مَكَّن خصومه من أن يمسكوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتى بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطراً يطفىء النار . لا . فقد أراد الله النار ناراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار ، وأن يلقوه فى النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أنا أزاول سلطانى فى الناموس ؛ لأنى خالق الناموس وأعطله متى شئت ، « يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » . أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار ، لقالوا : آه لو لم تنطفئ النار ، وآه لو لم ينزل الماء على النار .

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم . فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها نقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا فى الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ؛ لأنها مضبوطة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربنا . ولذلك نرى فى بعض الأحيان رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم فى ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكنى لم أدع لك كل الفهم ، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال فى منطقة ما ، فأول ما يخرج من المكان هى الحمير . وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

فإذا ما رأيت حدثا فى الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى ؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية الكون رتابة ، إنما هى نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته .

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكترونى لا يخطىء ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطىء ، لأنه كما تملؤه وتمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات . ليس له خيار فى شىء . أما العقل البشرى فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التى قد تضر . هذه هى العظمة .

ويقول بعضهم ـ كمثال آخر ـ إن الورد الصناعى لا يذبل ، نقول : إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنّه جمود فقط .

وساعة يجرى الحق سبحانه وتعالى شيئاً فى كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية فى الكون ؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بصيصاً من هذه الأشياء ، إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها فى منتهى العقل . مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ .

قال العبد الصالح :

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيخرق العبد الصالح السفينة . وخرق السفينة فى السطحية الفهمية شرّ ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابراً ، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى فى ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير . فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذى يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصباً :

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم ، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها ؛ لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شىء يجرى على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشرى فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد ، وهى من المكون الأعلى فوراءها حكمة .

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة فى ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سببا فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

ويقول قائل : وما ذنب الولد ؟. نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفضل له . وكان فى ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ؛ فالشىء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذى فعل الضر بنفسه . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن لله فيها حكمة . وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أى طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أى منهما نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لهما : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئاماً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِى ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِى ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذى فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة مَن يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شىء يصيبه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه « قل كل من عند الله » وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عندالله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . والحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

فإن جرت عليك سنة كونية خيراً فهو من الله ، أما إن أصابتك سيئة فيها لك فيه دخل فهى من نفسك . كأن المسألة قسمان : شىء لك فيه دخل ، وشىء لا دخل لك فيه . ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقدية فى الكون .

فالمؤمن بين لوم نفسه على مصيبة بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة مَن يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله ـ سبحانه ـ « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من